عيد ميلادى تقدم .. وتأخر .. وتكلم
لا تقل لى قبل عام .. كيف كنا ؟ أنا أعلم !
تظلم الموت إذا قلت ظلوم ليس يرحم
نحن لا بالموت أعطينا .. ولا بالموت نحرم !
صفقة الأعمار فيها .. قلة الخسران عشتم
إن يكن ذلك شيئا لست بعد الموت أعدم
أو يكن ليس بشيء .. أترى ( لا شيء ) يندم ؟
أية الحالين قل لى .. بعد طول العمر أسلم ؟

أم تراها كبرياء العقاد هى التى تداور ولا تريد أن تستسلم وتأمل فى طول العمر ... ؟ .

## العقاد الشاعر

قال العقاد فى مقدمة الجزء الأول من ديوان المازنى « حسب الأدب العصرى الحديث من روح الاستقلال فى شعرائه أنهم رفعوه من عراقة الامتهان التى عفرت جبينه زمنا فلن تجد اليوم شاعرا حديثا يهنيء بالمولود وما نفض يديه من تراب الميت ولن تراه يطرى عن هو أول ذاميه فى خلوته ويقذع فى هجو من يكبره فى سريرته ولا واقفا على المرافىء يودع الذاهب ويستقبل الآيب وما بالقليل من هـذه الروح الشماء فى الأدب أنها استطاعت أن تجهز على آداب المـواربة والتزلف بينـنا أو تردها إلى وراء الأستار بعد إذ كانت تنشد فى الأشعار وينادى بها فى ضحوة النهار » .

والعقاد هنا يتحدث بلسان « مدرسة الديوان » أى عن نفسه وصاحبيه إبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى وقد صدق فليس بالقليل أن ترد للأديب اعتباره وللشاعر احترامه .

لكن هذه المدرسة كان أثرها أبعد وخيرها على الشعر العربى أعم وأكبر عن مجرد رفع مكانة قائليه .. فمن آثارها مدرسة التجديد بالمهجر ومدرسة أبولو بمصر أو بعبارة أخرى ثورة فنية كبرى وثروة فكرية جارفة .

ولكن نوضح هذا الأثر الذى أحدثته مدرسة الديوان يجب أن تعلم مقاييسها الفنية فالشاعر فى نظر هذه المدرسة لابد أن يكون من أصحاب الطبيعة الفنية السليمة و « تمام هذه الطبيعة » كما يقول العقاد « أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا لا يفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته فديوانه هو ترجمة باطنة لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان » .

وهو رأى يوضح إلى حد كبير معنى الشعر كما يفهمه أصحاب المدرسة من أنه التعبير عن خواطر النفس وأحاسيس الإنسان .. أو كما يقول العقاد :

« ليس الشعر لغوا تهذى به القرائح فتتلقاه العقول فى ساع كلالها وفتورها .. إنما الشعر حقيقة الحقائق ولب اللباب والجوهر الصميم من كل ماله ظاهرة فى متناول الحواس والعقول وهو ترجمان النفس والناقل الأمين » (١) .

ويمضى قائلا « ويرون – القراء – فى هذه الصفحات نظرة المتدبر وسجدة العابد ولمحة العاشق وزفرة المتوجع وصيحة الغاضب ودمعة الحزين وابتسامة السخر ويشاشة الرضا وعبوسة السخط وفتور اليأس وحرارة الرجاء ويرون فيها إلى جنب ذلك من روح الرجولة وما يكظم تلك الأهواء ويكفكف من غلوائها فلا تنطلق إلا بما ينبغى من التجمل والثبات ..

---

( ١ ) من مقدمة الجزء الثانى لديوان شكرى .

إن شعر شكرى لا ينحدر انحدار السيل فى شدة وصخب وانصباب ولكنه ينبسط انبساط البحر فى عمق وسعة وسكون » ٠

بل إن العقاد يرى فى الشعر طبيعة الإنسان موصولة بالكون وحقائقه الأبدية التى لا تتناهى عندما يقول فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه « الشعر يعمق الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات ، عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التى يعرض عنها سواك ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما فى وسع الإنسان أن يعيش وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت » ٠

ولقد حاول العقاد دائما أن يعيش ما يعتقد ويترجم عن آرائه هذه شعرا ما وسعته أداته وكان الشعر آثر فنون العقاد وأحبها إلى نفسه ولقب « الشاعر » أغلى الألقاب لديه وأكرمها ٠

لذلك كان يعتز بشعره أشد الاعتزاز حتى ليعده روحا من روح الله وترجمان الحياة والشاعر ينشىء فى قوله :

الشعر من نفس الرحمن مقتبسٌ  والشاعر الفذ بين الناس رحمن
والشعر ألسنة تفضى الحياة بها  إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهى فاتنة  خرساء ليس لها بالقول تبيان
ما دام فى الكون ركن للحياة يرى  ففى صحائفه للشعر ديوان

وقد أجاد العقاد الوصف ليس لظاهر الموصوف فحسب بل أعماقه وأبعاده أيضا وما وراء ذلك الظاهر من معانى لا تراها إلا عين الشاعر وبصيرته المتعمقة ٠٠ واستمع إليه يصف ليلة مقمرة من ليالى الاسكندرية :

شف لطفا عما وراء السماء  نور بدر مفضض اللألاء
رق سجف السماء حتى كأن الـ  ـعَيْن تتلو هناك سر الفضاء

وسرى الطرف فى الفضاء فما يثنيه ثان عن خوض ذاك الفضاء
وربا النور كالعباب فما فى الـــــكَوْن غير الظلال عن ظلماء
فى سكون كأنه تفس الحـــا لم أو خفق طائر فى الهواء

ولقد كان حظ العقاد من حس الطبيعة وافرا وشعوره بها عميقا إلى حد الامتزاج والعشق فهو يضفى عليها من روحه ما يجعلها تهتز وتختلج وتصور بالحياة ولا شك فى أن العقاد قد تأثر فى ذلك بروح العصر الرومانسية التى شاعت بين كتابه مؤلفين ومترجمين والذين كانوا يجدون فى الطبيعة مهربا وأُمًّا يلتمسون عندها الراحة والحنان .. وها هو العقاد يتحدث إلى « الكروان » فى ديوانه فيقول :

أنا لا أراك وطالما طـــرق التـــهى وحىٌ ولم تظفـــــــر به عينان
أنا فى جناحك حيث غاب مع الدجى وإن اســـتقر على الثـرى جثمانى
أنا فى لسانك حيـــث أطلقـــه الهوى مرحا وإن غلب الـــسرور لســـانى
أنا فى ضميرك حيـــث باح فما أرى سرا يغيبـه ضـــــــمير زمـانى
أنا منك فى القلب الصغير مساجلٌ خفق الربيـع بذلك الخفقـــــــان
أنا منك فى العين التى تهب الكرى وتضن بالصحـوات والأشـــــجان

ولقد تأثر العقاد بالبيئة حوله وأثر فيها وترجم صادقا عن أحداث مصر ، فهو يصور لنا تلك البيئة الرأسمالية حينما كان أبناء الشعب يتضورون جوعاً ليثرى صاحب الأرض والقصر والمصنع ويحبسون أموالهم عن العمل لمصلحة البلاد :

لا تحسبوا أمة يعلو أعاظمـــــها إذا الفقـــــير طلابُ القوت أعياه
أيرزح القوت فى أرض بطالبـــه ويبلغ المجـــــــد فيها من توخاه ؟
دفنتم المال آكاما فهـــــل نبتت فى باطن الأرض أو زادت خباياه ؟

إن العزيز ليأبى الذل لصاحبه كالإثم يأبى العفيف الذليل رؤياه

هذا المجتمع لا تكتمل صورته إلا بأهل النفاق الذين يتسلقون قمم المجد على حطام الفضيلة بينما الإنسان الصادق المخلص يتوارى لأنه لا يستطيع مجاراة هذا المجتمع :

فشت الجهالة واستفاض المنكر فالحق يهمس والضلالة تجهر

والصدق يسرى فى الظلام ملثما ويسير فى الصبح الرياء فيسفر

إنا لفى زمن كأن كباره يرى الكبائر شأنها لا يكبر

من كل ذى وجه لو أن صفاته تندى لكان من الفضيحة يقطر

لكن العقاد لا يستسلم لليأس أبدا بل هو دائما يستنهض همم الشباب ليثور ويحقق للبلاد آمالها بلا يأس أو قنوط فى مثل قوله :

شبان مصر وما دعوت سوى الأولى يحيا بهم أمل البلاد ويورق

أيعيش فى لهو الرفاهة من له من كل صعلوك إليه مطلق ؟!

لكم الغد المنشود فاعتصموا به فإذا استقر لكم أساس فارتقوا

وهو يمهد فى دعوته للثورة على الظلم بفضحه للناس حتى يستثير حميتهم ويدفعهم دفعا إلى التمرد عليه :

لا يكنْ من بنى الكنانة باغ يملأ الناس دوره وهو خال

ويكيل النضار وهو دماء جمعت من مصارع الآجال

كيف ترعى عناية الله أرضا باء فيها المجد بالإقلال

ينسج الخز والحرير ويمشى حافيا فى الرقاع والأسمال

ويشيد القصور وهو شريد فى زوايا الكهوف والأطلال

ويدر الغنى وما فى يديه شبعة الوالدين والأطفال

يهب المترفين عمر فراغ وهو باكى الأيام باكى الليالى

ذاك ظلم نعـــيذ بالله مصرا  من أذاه فى مقبـــــل الأجيال

فإذا ما تحققت الآمال بثورة ٢٣ يوليه استقبل الثوار بقصيدة تصور فرحته بعيد انتصرت فيه الحرية هو عيد النيل وربيع الحياة فى مصر وانقضاء الظلم وسيادة الشعب :

يا صحـــبة التوفيق وفـ  ـقتم إلى النهـــج السديد
حييـــــتم النيل المبا  رك واحتفيـــتم بالصعيد
عيـــــد له فى ذمة الـ  ـتاريخ توفيـــق حصيد
عيـــــد الأوائل والأوا  خر والخمـــائل والورود
فى كل عام تحتـــــفو  ن بمولد اليـــــوم الجديد
لا راغم فـــيه يـــــسا  د وكل من فـــــيه يسود

أما شعر الوجدان عند العقاد وأعنى به العاطفة الخالصة النابعة من الشعور الصادق والإحساس الذاتى العنيف فهو غير كثير عند العقاد وإن كان يبلغ الذروة عندما يترجم عن وفائه الذى كان مضرب الأمثال ، استمع إليه يرثى صديقه ورفيق عمره المازنى :

وقالوا : المازنى قضى ، فضلـت  مقاصد قولهم أو ضـــل رشدى
كأن حديث ما زعمـــوا خيال  بعـــيد فـى الحقيـــقة أى بعـد
إذا عين فقت فأعجـــب لأخرى  من العـــينين طلـــقة بســـهد
صحبنا العمـــــر عاما بعد عام  على الحالين مـــن ضـنك ورغد
وبين تعـــــهد منـــــه ومنى  وبين تبســـط منـــا وجـــدّ
وغيرت الحـــوادث كل عهـد  ســـوى ما بينـــنا من عهد وود
ســـلاما ، أيتها الدنيا سـلاما  لأنت أحـــب لى لو مات بعدى

تحس أن عمق الشعور بالرزء جعل العقاد هنا يتخلى عن تحكم العقل ويستسلم للأسى فيجيد التفجع والحزن إن جاز التعبير .

أما إذا تحدث فى الغزل فهو يميل إلى التجرد عن المادة ويغرق فى وصف الروح والشمائل وكأنى به يترفع بشعره عن الحديث المباشر عن الجسد والغريزة .. فهو يقول :

أوتيت من حسن الشمائل نعمة ... والحسن فى الدنيا من الآفات
والحسن يعشقه الكـــــريم وربما ... أغرى لئيم النـفـس بالنزغات

إنه بذلك يجرد شعره من حرارة الحياة ودفء العاطفة التى تنبع من فطرة الإنسان وغريزته الأبدية التى توجهه إلى حفظ نوعه .. ومتى خلا الحب من آثار الجسد ؟

إن مثل هذه القصيدة التى يتحدث فيما العقاد عن لحظة نعيم الحب فيقول :

لحظة تمنح قلبـــــى ... كل هاتيـــك الهبات
لحظة ترفع عمـــرى ... حقــبا متصــــلات
لحظة ؟ لابل خلـــود ... لاح بين اللحـــظات
كالســـموات تراها ... من شـــباك الحلقات
رب آباد تجـــــلت ... من كـــرى مختلفات
وقطيــــرات زمان ... مــلأت كأس حـــياة

أقرب إلى التأمل الفلسفى منها إلى التجربة الإنسانية التى تزخر بالعاطفة وتترجم عن الشعور ..

ولعل السر فى ذلك يرجع إلى ضآلة دور المرأة فى حياة العقاد لأننا نراه لم يسجل من هذا الجانب من حياته إلا صورة تلك الغانية اللعوب



obeikandi.com

بائعة الهوى فى قصة ( سارة ) ولعل مرجعه كذلك إلى كبرياء العقاد العنيفة التى تأبى الاعتراف بالضعف حتى فى أتون الحب .

استمع إليه يرفض عودتها فى ترفع وعناد :

تريدين أن أرضى بك اليـــوم للهوى وارتاد فيـــك اللهـــو بعد التعبد

وألقاك جســـــما مستباحـــا وطالما لقيتك جـــــم الخوف جم التردد

إذا لم يكن بد من الكـــأس والطلا ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى

وقد اختلفت الآراء : آراء النقاد حول شعر العقاد اختلافا كبيرا ووقف كثير منهم على طرفى نقيض فالأستاذ رجاء النقاش يقول :

« لقد كانت ذاتية العقاد تمتزج بنوع برىء من حب النفس .. لقد كان العقاد يعشق نفسه – فى براءة أشبه ببراءة الأطفال – ولو غلبت على العقاد النظرة الموضوعية لما نشر جانبا كبيرا من شعره فقليل من شعره يستحق الحياة والبقاء وأغلب شعره ضعيف محدود القيمة .. ولكن ما دام هذا الشعر صادرا عن عبقرية العقاد فلابد أنه شعر جميل .. ولا يهم المقياس الموضوعى بعد ذلك عند الآخرين » (١) .

وهذا تعميم ينقصه الدليل والبيان كما تعوزه الموضوعية التى طالب بها الناقد العقاد ومع ذلك فقد حذا حذوه الشاعر نزار قبانى عندما قال فى حديث له « العقاد العظيم قل أن تعطى مثله العصور .. الفنون كلها .. والمعرفة كلها طرقت بابه .. ولكن الشعر .. ظل وراء الباب .. أعنى أن العقاد كان حقلا من سنابل القمح .. ولم يكن أبدا حقلا من التيوليب أو حقلا من عناقيد العنب .. أدب العــقاد كان من النــوع الذى يمنحنا غذاءً ذهنيا كاملا .. ولم يكــن مــن النوع الذى يمنحنا نشوة جمالية دافئة .. وهذا لا ينقص من قيمة العقاد .. فسنـــبلة القمح مكانها على

( ١ ) من بحث بعدد ١٩ / ٣ / ١٩٦٤ من جريدة الجمهورية .

الرابية .. وللزنبقة مكانها .. ومن الظلم أن نطلب من السنبلة أن تعطينا عطرا .. كما أن من الظلم أن نطلب من الوردة أن تعطينا قمحاً[1].

وهكذا يجرد نزار العقاد من شاعريته لأن شعره لم يمنحه نشوة جمالية دافئة ، وأغلب ظنى أن نزار لا يرى الجمال فى غير المرأة وفى غير حديث الحب والجنس ، أما غير ذلك من خبرات الحياة فلا قيمة له لكن الدكتور طه حسين يقول فى عام ١٩٣٤ « إنى لا أؤمن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أؤمن بالعقاد .. ، إن له قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا .. قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم أقل الناس قراءة فى هذا العصر .. خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيراً إلا فى أوربا حيث يلتمس الشعراء الفن لا فى الأدب وحده بل فى العلم وفى كل شىء آخر » .

ويكبر طه حسين شعر العقاد « لأنى حين أسمع شعر العقاد إنما أسمع الحياة العصرية الحديثة » .

« ثم لأنى إذا قرأت شعره مرة ومرة لم أستطع أن أقول لنفسى .. قد قرأت هذا الكلام من قبل أو أين قرأت هذا ؟ أفى شعر البحترى أم عند أبى تمام أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام ؟ كلا .. إنما تقرءون العقاد فتقرءونه وحده ، لأن العقاد ليس مقلدا ولا يستطيع أن يقلد ، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته وشخصية العقاد فوق الفساد ، خذوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين .. أنا واثق أنكم لن تمضوا فى قصيدة حتى تذكروا شاعرا من المتقدمين أو أن تذكروا شاعرا من الغربيين المحدثين ولكن أنظروا فى العقاد خذوا بيتا من العقاد أو قصيدة أو مقطوعة فلن تروا إلا العقاد »[2] .

نلمس من أقوال الدكتور طه أنه معجب بثراء شعر العقاد فى الفكرة

---

( ١ ) عدد ٢٩ / ٦ / ١٩٦٤ من الأخبار .

( ٢ ) من بحث للدكتورة نعمات فؤاد بالمجلة عدد يونية ١٩٦٤ .

التى ترفدها ذخيرة كبيرة من الاطلاع والمعلومات وقد كان من أثر هذا الثراء أن كثر شعر التأمل الفكرى فى دواوين العقاد الذى يعالج مشاكل الفلسفة والمنطق كقوله :

أين الحقيقة ؟ لا حقيقة ... كل ما زعموا كلام
الناس غرقى فى الهوى ... لم ينج غر أو إمام
كل يهيم بها فإن ... لاحت لهم صدوا وهاموا
كم أشرق الحق الصرا ... ح فأعرضت عنه الأنام
والناس لو تدرى خفا ... فيش يطيب لها الظلام

## العقاد الفيلسوف

يقول الدكتور زكى نجيب محمود « أما العقاد الذى كان بدوره قد استقر إلى آخر يوم فى حياته على رأى آخر هو رأى الفلاسفة العقلانيين الذين يقبلون المفاهيم الذهنية حتى ولو لم يقابلها فى عالم التجربة الحسية مسمى قريب إلى عين الإنسان ويده » (١) .

وقال آخرون إن العقاد قد تأثر فى فلسفته بآراء كنط Kant فى التفرقة بين « عالم الظاهرات وعالم الأشياء فى ذاتها » .

لكن الواقع أن العقاد لم يكن له مذهب معين فى الفلسفة بل هو قد آمن بالعقل وبأن هذا العقل أكرم على صاحبه من أن يخضعه لمذهب فلسفى واحد أو رأى ارتآه عقل آخر كما أيقن بعد دراساته الطويلة فى المذاهب الفلسفية بأن العقل وحده لا يستطيع أن ينفذ إلى معرفة الحقائق الكونية لأن هذا العقل لن يطلعنا على غير أوصاف تلك الحقائق وأعراضها أما كنهها فإنه يتوارى عنه .

إنما الوجدان هو الذى يحس هذه الحقائق ويتغلغل فى الوعى بها بل ويتصل بالذات الإلهية مستشرفا صفاتها العلية .

---

( ١ ) من مقال بمجلة المجلة عدد مايو ١٩٦٤ .

يقول العقاد : « إذا لم تكن النفس من التمكن من ينبوع الوجود بحيث يسرى إليها الإيمان به من داخلها كما يسرى عصير الحياة إلى الشجرة اليانعة من مغرسها فسريان الإيمان إليها من الخارج مستحيل . وكل شعور بعظمة الحياة فإنما هو شعور بعظمة الله الحقيقية وهو الإيمان الحق المقصود (١) .

وهكذا انتهى العقاد من رحلته الطويلة فى عالم الفلسفة إلى الإيمان العميق وإلى أن ( الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة لأن الإنسان غير المؤمن إنسان غير طبيعى فيما يحس به من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه وأن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعا تستقيم على الإيمان بالذات الإلهيةوأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم ) وبعبارة أخرى ( إن العقيدة الدينية هى أقرب الفلسفات إلى المعقول ) .

وأعتقد أنه نتيجة لهذه الفلسفة أو لما استخلصه العقاد من دراساته فى الفلسفة أن اتجه هذا الاتجاه الدينـــى فى كتاباته الأخيرة لاسيما كتابيه ( إبليس ) و ( الله ) ثم العبقريات التى أثرى بها مكتبتنا العربية .

ويجرنا ذكر العبقريات إلى الحديث عن علم النفس – الذى كان يعتبر إلى عهد قريب فرعا من فروع الفلسفة – والذى لا شك فيه أن العقاد قد أولى هذا العلم اهتماما خاصا منذ مطلع حياته الأدبية حتى أصبح منهجه فيما يكتب من دراسات عن الشعراء أو تأريخ لأعلام الأمم هو المنهج القائم على الفلسفة النفسية وإبراز خصائص النفس .

بل لقد اتبع نفس المنهج فى كتاباته الأدبية الأخرى فنراه يبـنى قصة ( سارة ) على تحليل نفسية أشخاصها بل ويعرض فى سياقها لتحليل المشاعر الإنسانية بصفة عامة .

فهو يحاول أن يحلل أثر الحادثة على نفس الإنسان – أية حادثة وأى

---

( ١ ) خلاصة اليومية .

إنسان – عندما تفجأ صاحبها ثم وهو يعانيها ثم بعد أن يبعد العهد بها فيقول « تشغلنا الحادثة أياما وشهورا فلا نفكر إلا فيها ولا نحسب أن فى الدنيا أمرا جديرا بالتفكير والاهتمام غيرها ولا نظن أننا نطيق العيش ونصبر على البقاء لو تحقق ما نحذره منها ، ولا نرضى من أحد أن يستخف بها ويستكثر ما نعيره إياها من الهم والقلق والأهمية ثم تمضى الحادثة وتتبعها العاقبة بعد العاقبة فتصبح عندنا – نحن لا غيرنا – تسلية نرويها ونضحك منها ونتفرج بها كما نتفرج برؤية المشاهد الفنية التى تقع لشخوص المسارح الخيالية ! (١) .

أما تلك الدراسات الفذة التى عرفت باسم العبقريات – والأصح أن تسمى عبقريات العقاد – فقد اعتمد العقاد فى كتابتها على تحليل نفسية كل عبقرى تحليلاً شاملا عميقا بعد أن يتوصل إلى مفتاح شخصيته .

ولنضرب لذلك مثلا من كتابه « أبو الشهداء : الحسين بن على » .. فرغم أن الكتاب لم يعنون « بعبقرية الحسين » إلا أن العقاد سار فيه على نفس النهج وقد أشار فى المقدمة إلى مفتاح شخصية الحسين .. شخصية المثالى الذى يواجه دنس الأغراض :

« عجبا إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ولم يزل الشهداء يصلونها نارا حامية من عبيد البطون والأكباد ولم يزل داؤنا العياء » (٢) .

ثم يقول « يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان .. مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال .. فقد تقترن الأريحية بالمنفعة، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما إذا اصطدما – ولا سيما فى الأعمال الكبيرة – لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين ، فهذا للأريحية حتى

(١) ص ٩١ من ( سارة ) – طبعة دار الهلال .

(٢) ص ٥ – ١١ من أبى الشهداء – طبعة دار الهلال .

يجب المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجب الأريحية ويخفيها ..
أو كذلك يتراءيان ..

أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الإنسانى كله . ومن ثم يكتب لها الدوام إذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك .

وأصحاب الأريحية إذن أبعد نظرا من دهاة الطامعين والنَّهازين للفرص والمغانم العاجلة ، لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير فهم - شعروا أو لم يشعروا -بعيدو النظر إلى عواقب الأمور ، وإن خيل إلى أناس انهم طائشون متهجمون » .

ويمضى العقاد ليحلل لنا مثلا أعلى من أمثلة أصحاب العقائد والمثل العليا والمثل الخالص لوجه الحق والكمال والاستشهاد فى سبيل العقيدة والمثل ، ويحلل شخصية الحسين التى خلقت للأريحية والنخوة .. تلك الشخصية التى أصبحت رمزا يحاول محاكاته الناس حتى أنه « لما نعى الحسين فى الكوفة نادى واليها ابن زياد إلى الصلاة الجامعة ، وصعد إلى المنبر وخطب القوم يقول ( الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته ) .. فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى الذى ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين ، فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه ( يا ابن مرجانة ! أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاَّك وأبوه ) .. فما طلع عليه الصباح إلا وهو مصلوب .. » .

من هذا نرى أن علم النفس كان مجال التطبيق العملى الواسع الذى جال فيه العقاد بفلسفته وصال .

---

( ١ ) ص ١٧ من أبى الشهداء .

## الإنسان الحر

من أهم السمات المميزة لشخصية العقاد تقديسه للحرية وإيمانه بهذه القدسية حتى أنه استهان فى سبيل حريته بالجوع والعطش وكل صنوف الاضطهاد حتى السجن ولم يجبن – كما فعل غيره – فى جلسة مجلس النواب يوم ١٧ يونية سنة ١٩٣٠ وإسماعيل صدقى على رأس الوزارة والملك فؤاد يتدخل فى سياسة الدولة تدخلا ديكتاتوريا غير مشروع .. فقال قولته المشهورة :«يجب على هذا البلد أن يكون على استعداد لسحق أكبر رأس تعتدى على الدستور وحرية الأمة » ولم يكن هذا الإيمان العميق بالحرية عن فورة حماس وثورة عاطفة بل عن دراسة واعية وعقيدة راسخة وأحد مقومات فلسفة العقاد التى انتهى فيها إلى القول بتلازم الجمال والحرية فهو يقرر :

« أن الحرية فى رأيى هى العنصر الذى لا يخلو منه جمال فى عالم الحياة أو فى عالم الفنون ، وأننا مهما نبحث عن مزية تتفاضل بها مراتب الجمال فى الحياة لا نجد هناك إلا مزية ( حرية الاختيار ) التى يفضل بها الإنسان الكامل من دونه من المرجوحين فى صفات النفوس وسمات الأجسام ، على أن المادة الصماء نفسها تتفاضل فى الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة ( الإرادة ) فتروقنا النيران والرياح والأمواه ، وتطلق فى نفوسنا خوالج الحياة ونعاطيها شيئا من العطف مالا نعاطيه لغير الأحـــياء ، وليس لها فضل ظاهر على عامة الجماد إلا بما تخيله : الناظر من حرية الإرادة ومحاكاة للحياة [١]».

وبسر هذا الإيمان عكف العقاد على البحث من أجل المعرفة لذاتها يطلبها لنفسه وينشرها على الناس ونزه قلمه من الخوض فى سفساف الأمور أو التماس الشهرة من أى سبيل فهو يقول « ما أغنانا عن إنفاق المال

---

( ١ ) من بحث للدكتور عثمان أمين بالعدد ٧٦ من مجلة العربى مارس ١٩٦٥ .

والصبر على المطالعة والمراجعة إن كان غاية ما نبغيه الكسب والرواج ؟ لقد كان أيسر جدا أن نضع القلم على الورق بغير مطالعة ولا مراجعة فنخط به قصة من قصص الشهوات التى تروج وتحسب عند الأغرار من فتوح الإبداع والتجديد فإن لم تكن تأليفا فلتكن ترجمة ، ولتكن من قبيل الصور العارية التى تملأ المكتبات مخطوطة ومرسومة ، ولا تعب فى ترجمتها ولا كلفة ولا صعوبة فى البحث عنها ... كان ذلك أجدى علينا لو أردنا الربح والراحة ، وكان ذلك غنما عند هذا ( الواغش ) البشرى الذى لا يتورع من خسة الافتراء بغير بينة ولا حياء » (١) .

وبسر هذا الإيمان العميق بالحرية كانت معظم عبقريات العقاد لأعلام العروبة ليقدم لشباب العرب فى كل مكان القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى يستثير هممهم إلى النهوض والسعى فى طريق الحرية والتحرر .

إنه كان يؤمن بحرية الإنسان فى كل مكان وكان من الفطرة السليمة أن يبدأ بنفسه ثم بإخوانه فى الوطن العربى الكبير حتى أصبح العقاد علما من أعلام الدعوة إلى القومية العربية بما أحيا من تراثها الخالد وبما كتب لها من طريف آرائه وكتاباته وبمادعا إلى الحرية فى كل جزء من أجزاء الأمة العربية .

## العقاد الناقد

قرأت للعقاد مقالا فى إحدى المجلات(٢) يعرض فيه كتابا فى النقد فراعنى موقف العقاد العظيم من مؤلف الكتاب – وهو من أساتذة الأدب – إذا أخذ يضع أمامه قواعد النقد كما يراها العقاد فى رفق وأناة وكأنه الأستاذ أمام تلميذه ، يرشده ويوجهه ويثنى عليه إذا أصاب ويرده إذا أخطأ بالحجة والمنطق السليم حتى يبلغ به أقصى ما يرجوه أستاذ لتلميذه من نجاح .

وقد أوجز العقاد هذه القواعد فى قوله « إن مدارس النقد جميعا يوشك أن تنحصر فى ثلاث :

---

( ١ ) المرجع السابق .  ( ٢ ) عدد مارس – إبريل من مجلة قافلة الزيت .

مدرسة التحليل النفسى ، ومدرسة الدراسة الاجتماعية ، ومدرسة الاذواق الفنية .

ومدرسة التحليل النفسى هى أقرب المدارس إلى الرأى الذى ندين به فى نقد الأدب ونقد التراجم ونقد الدعوات الفكرية جمعاء لأن العلم ينفس الأديب أو البطل التاريخى يستلزم العلم بمقومات هذه النفس من أحوال عصره وأطوار الثقافة والفن فيه وليس من عرَّفنا بنفس الأديب فى حاجة إلى تعريفنا بغرض وراء هذا الغرض المطلوب ولا هو فى حاجة إلى تعريفنا بالبواعث الفنية التى تميل به من أسلوب إلى أسلوب .

وللنقد كما تقدم مدرسة أخرى محترمة كثيرة الأنصار فى العصر الحديث على الخصوص . بعد استفاضة البحوث حول الدعوات الاجتماعية وعلاقة الأديب بمطالب عصره ، وموضع الملاحظة على هذه المدرسة أن الذى يعرّفنا بأحوال المجتمع وحسب لا يستطيع أن يعرفنا بأسباب الفوارق الكثيرة التى تشاهد بين عشرات الأدباء من أبناء العصر الواحد ولا غنى له عن الرجوع إلى النفسيات مع التعويل على الاجتماعيات فى مسائل الأدب والتاريخ .

أما المدرسة الفنية فهى مدرسة البلاغة والذوق ومدرسة المعانى الرائقة والتعبير الجميل وهى تلجئنا لا محالة إلى ذوق الأديب وذوق الناقد على السواء ومتى وصلنا إلى الذوق فقد وصلنا إلى النفسيات ووصلنا قبلها إلى الاجتماعيات على الإجمال » .

ثم يختتم هذا الإيجاز بتبيان ما يشترط فى الناقد قبل أن يقدم على حمل أمانة النقد فيقول « إن الناقد الذى توافرت له أداة النقد من المعرفة واللغة والأمانة والاطلاع على مراجع النقاد هو أديب قادر على الإنتاج مخصب القريحة بثمرات الإجادة والافتتان مميز للمحاسن غير مقصور الفهم على تمييز النقائص والعيوب لأنه عارف بالقدرة التى تنتج المحاسن

وترتفع به إلى الإجادة فى التفكير والتعبير وقل أن يحتاج الناقد إلى من يعلمه مواطن العيوب مع علمه بمواطن الحسنات لأن أجهل الجهلاء بالبناء قد يدرك عيوب القصور والصروح كما يدرك عيوب الخصاص والأكواخ» .

والعقاد الناقد قد أخذ نفسه بشروطه ولم يقصر فى تحصيل أو طلب علم فاحتل مكانته بين النقاد المعاصرين عن جدارة واستحقاق .

ولقد تنوعت كتابات العقاد فى النقد فكتب عن الموسيقى والتصوير والنحت والأدب والشعر كتابة الدارس المتمكن وهى جميعا تربطها وحدة الفن وإن اختلفت طرائق التعبير .

لكن معركته الكبرى التى خاضها منذ مطلع حياته إلى آخرأيامها كانت معركته من أجل الشعر مع البون الشاسع بين البدء والنهاية .

لقد بدأ هذه المعركة – مع زميليه المازنى وشكرى – داعية عنيفا لتجديد الشعر وتحطيم طواغيت المدرسة القديمة التى عرفت باسم « مدرسة الإحياء والبعث » والتى تزعمها البارودى ومن بعده شوقى ونادى العقاد بتحرير مضمون الشعر حتى يصبح تعبير النفس عن خلجاتها ومشاعرها الإنسانية والطبيعة وحقائق الكون وصورة لروح الأمة لا تقف عند ظاهر الأسماء والتواريخ بل تعكس ما يعتلج فى الضمير ويثور داخل الصدر .

وكان لابد لتحقيق هذا المضمون الجديد للشعر من تحرير الشاعر من الصياغة القديمة ونقوشها الزخرفية وقوافيها المعروفة ، فدعا العقاد إلى ذلك بل تطرف فى دعوته حتى نادى بالشعر المرسل المتحرر من القافية وإلى إعادة النظر فى الأوزان والقوافى بحيث يدخل الشعراء عليها ما يريدون .

فهو يقول عام ١٩١٤ فى تقديم الجزء الأول من ديوان المازنى « لقد رأى القراء بالأمس فى ديوان شكرى مثلا من القوافى المرسلة والمزدوجة

والمتقابلة ، وهم يقرءون اليوم فى ديوان المازنى مثالا من القافيتين المزدوجة والمتقابلة ولا نقول إن هذا غاية المنظور من وراء تعديل الأوزان والقوافى وتنقيحها ، ولكنا نعده بمثابة تهيؤ المكان لاستقبال المذهب الجديد ، إذ ليس بن الشعر العربى وبين التفرع والنماء إلا هذا الحائل ، فإذا اتسعت القوافى لشتى المعانى والمقاصد وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل ، ثم لا تطول نفرة الآذان من هذه القوافى لا سيما فى الشعر الذى يناجى الروح والخيال أكثر مما يخاطب الحس والآذان ، فتألفها بعد حين وتجتزىء بموسيقية الوزن عن موسيقية القافية الواحدة » .

وأخذ العقاد يبدىء ويعيد – ومعه صاحبه المازنى – فى شرح مذهبهما الجديد لكن قليلا من الناس يستمعون له بل الأغلبية منصرفة إلى شوقى وحافظ وتقديس روائعهما فكان لابد من حمل معول الهدم لتحطيم هذه الأصنام – كما أعتقد – وإظهار فساد مذهبها الشعرى الذى لا يعنى بوحدة القصيدة ولا بالتعبير الصادق عن النفس إزاء الحياة والكون فكان كتاب « الديوان فى الأدب والنقد » الذى صدر فى عام ١٩٢١ وكتب فيه المازنى عن حافظ وهاجم فيه العقاد شعر شوقى هجوماً عنيفاً بدأه مخاطبا شوقى بقوله « اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا عن يعددها ويحصى أشكالها وألوانها وأنه ليس مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف عن لبابه وصلة الحياة به وليس همّ الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط السمع والبصر وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس إخوانه زبدة ما رآه وما سمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه وإذا كان وكدك من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تتذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أشياء حمراء أو خمسة بدل شىء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك

وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، وصفوة القول إن المحك الذى لا يخطىء فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيًّا ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية » .

وظل العقاد يدافع عن رأيه طول حياته وآتت توجيهاته ثمرتها وأصبح لمدرسته تلاميذ لمعت أسماؤهم فى سماء الشعر العربى .

لكن ما أن أهلت الثلاثينات وأخذت تنتشر موجات الشعر الحر الذى تحرر من الشكل التقليدى للقصيدة العربية وحطم قافيتها وجعل الوحدة الأساسية التفعيلة » فالبيت يتألف من ثلاث تفعيلات أو أقل أو أكثر حسب حاجة المعنى وما يتطلبه المضمون » حتى نرى العقاد يسترد حماسه القديم وعنفه الشديد ويبدأ حملاته العنيفة على هذا الشكل الجديد للقصيدة مدافعا أقوى الدفاع عن القيم الموسيقية للقصيدة العربية ويصدر هذا الدفاع فى كتابين ( اللغة الشاعرة ) و ( أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ) .

وظل حتى آخر أيامه بوصفه مقرر لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون يحارب هذا الاتجاه الجديد فى الشعر كجزء من دفاعه عن اللغة الشاعرة .

## رأيه فى المرأة

كثيرا ما نافس العقاد – فى نظر بعض الناس – توفيق الحكيم فى لقب « عدو المرأة » لكن الواقع ينفى عن كليهما هذا العداء المدعى .

ولقد دافعت إحدى بنات حواء[1] عن العقاد ورأيه فى المرأة فقالت :

« قال العقاد المرأة للبيت أولا .. فلتعد المرأة لحظيرتها الطبيعية .. لكن ما عناه العقاد ( بالبيت ) هو الرمز الكبير الذى يذكر ( المرأة ) أنها ليست ( الرجل ) وأن انتصارها ليس فى أن تحقق التشابه الكامل بينها وبينه – مثل الزنجى الذى يصبغ شعره أصفر ليحقق العدل الاجتماعى بين البيض والسود ناسيا أن العدل الاجتماعى هو أن يحصل الزنجى على حقه فى اعتزازه بأنه أسود – أن تشعر المرأة بفخر أنها امرأة .. أنها بيت مسئول وحده عن طفل يسكنه تسعة أشهر ... مسئولية لا يمكن للرجل إن يزاحمها فيها .. وهذا الطفل ماذا نفعل به بعد ولادته ؟ نرميه للكلاب الضالة لأن السيدة أمه نسيت أنها خرجت لتعمل من أجل البيت ؟ إن صيحة العقاد لا تعنى أن تكف المرأة عن العمل ... ولكنها نذير حتى لا تضل عودتها إلى البيت .. وأين الإهانة فى هذا ؟ » .

« إن ما أراد أن ينبهنا إليه العقاد بلا ملق .. هو أن كل ما حصلت عليه المرأة فى العالم ليس سوى مظاهر وشعارات المساواة التى كسبها الرجل من المرأة بتكديس الإرهاق فوق رأسها .. إرهاق الشارع بكل جهده وعرقه وعنفه .. بالإضافة إلى مسئوليتها الكبيرة – والتى لا يمكن إلغاؤها – كامرأة وأم – وبقى جوهر المشكلة كامنا .. فالمجتمع مازال مجتمع الرجل .. يسن قوانينه ويصدر أحكامه ويوقع عقوباته وفكرته الدفينة عن المرأة بأنها إحدى ممتلكاته .. اختيارها محدد بمدى تصريحه وبدلا من سيد واحد كان للمرأة .. أصبح لها سيدان .. سيد فى البيت وسيد فى المكتب » .

والواقع أن العقاد كان يكبر وظيفة المرأة ويرى أن الأمومة وإعداد جيل المستقبل الإعداد الطيب ليست بأقل شأنا من الجهاد فى سبيل الرزق

---

( ١ ) صافيناز كاظم بالأخبار عدد ٢٩ / ٦ / ١٩٦٤ .

ولا هى بأدنى شرفا من عمل الرجل ، لذلك كان يرى – كما جاء فى كتابه « المرأة فى القرآن الكريم » ألا محل هناك لما يسمونه معركة تحرير المرأة ولا للخصومة بين الجنسين :

« ملاك العدل والمصلحة بين الجنسين أن تجرى الحياة بينهما فى الأمة على سنة التعاون والتقسيم لا على سنة الشقاق والتناضل بالمطالب والحقوق وليس الخلاف بينهما بالخلاف الذى يفض بالصراع على كفاية واحدة يدعيها كلاهما فى مقام الخصومة ولكنه خلاف على كفايتين أيهما أصلح لهذه وأيهما أصلح لتلك وإن صلح كلاهما لكفاية الآخر فى كثير من الأحيان » .

وحظ المرأة بعد ذلك من أدب العقاد حظ ضئيل نسبيًّا إذا قيس بإنتاجه الغزير كما كان حظها من حياته وأثرها فيها قليلين .

ولعل ذلك يرجع إلى خلو هذه الحياة من المرأة اللهم إلا من أمه فى طفولته وتلك الغانية اللعوب التى حدثنا عنها فى قصته ( سارة ) .

وقد ذكر العقاد سبب عدم زواجه فى أحاديث كثيرة مرجعا ذلك إلى عدم الاستقرار فى حياته التى عانى فيها كثيرا من الاضطهاد وانقطاع أسباب الرزق حتى فاته القطار .

* * *

## مؤلفاته

سئل العقاد عن أحب كتبه إلى نفسه فقال : فى الأدب :ابن الرومى ، وفى العبقريات : عمر بن الخطاب ، وفى الدراسات النفسية : أبو نواس ، وفى الفلسفة : من الله ، وفى الاجتماع : المرأة فى القرآن .

وكثيرا ما كان يشير إلى أن كتب الكاتب كبناته من العسير عليه أن يفاضل بينها لأن كلا منها يمثل جزءاً حيًّا من جهاده وتاريخ نضاله ، بل قطعة من روحه .

والعقاد كان غزير الإنتاج فأخرج ما يزيد على الثمانين كتابا نذكر منها كتاب « الله » الذى ترجم إلى الفارسية وعبقرية محمد ، وأبو الشهداء وعبقرية الإمام وهذه الكتب الثلاثة قد ترجمت إلى الفارسية والأردية والملايوية .

كما له فى العقيدة الإسلامية كتب الفلسفة الإسلامية ، والديموقراطية فى الإسلام ،والإسلام فى القرن العشرين ، ومطلع النور ، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، والإنسان فى القرآن الكريم ، والتفكير فريضة إسلامية وما يقال عن الإسلام .

ومن أشهر كتبه ابن الرومى وعبقريات المسيح وعمر والصديق ودواوين العقاد التسعة ثم ( الديوان ) و ( مراجعات بين الآداب والفنون ) وشعراء مصر وبيئاتهم فى الحيل الماضى وغيرها كثير مما أثرى به العقاد مكتبتنا الأدبية ورفع به لنفسه ذكرا بين الخالدين .

وكما قاسى العقاد الكثير من الجحود وعدم التقدير فى مطلع حياته فإنه حظى بالشهرة والتكريم بعد ذلك .. لقد كرمه أعلام الفكر والأدب فى حفل تكريم خاص بمسرح الأزبكية يوم ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٤ كما كرمه تلاميذه وأصدقاؤه عند بلوغه السبعين بإصدار كتاب تذكارى عنه شاركوا فى كتابته واختارته الدولة عام ١٩٣٨ عضوا بمجمع اللغة العربية وفى سنة

١٩٥٦ عيِّن عضوا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وظل منذ تعيينه به مقررا للجنة الشعر ، وفى عام ١٩٦٠ منح جائزة الدولة التقديرية للآداب لعام ١٩٥٩ بعد أن رشحته لها خمس عشرة هيئة بين ثمانى عشرة وتسلم الجائزة ليلة عيد العلم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٠ .

وكان قرار لجنة الجائزة هو التقدير الرسمى لمكانة العقاد فى الأدب العربى وقد جاء فيه :

« وقف الأستاذ عباس محمود العقاد حياته كلها على خدمة الفكر والأدب وقد ثابر على ذلك منذ شبابه الأول فقضى خمسين عاما فى المطالعة والتأليف حتى اشتهر بخصب التفكير وكثرة الإنتاج وقد كانت نظرته إلى الأدب نظرة جد لا نظرة لهو وتسلية ومما يدل على شدة إيمانه يجد الأدب وبعده عن لهوه وتسليته وفرة مؤلفاته حتى نيفت هذه المؤلفات فى منظوم القول ومنثوره على السبعين » .

* * *

# مراجع البحث


١ – فى صحبة العقاد — محمد طاهر الجبلاوى

٢ – مع العقاد — دكتور شوقى ضيف

٣ – عباس محمود العقاد — دكتورة نعمات أحمد فؤاد

٤ – مؤلفات العقاد.

٥ – مقالات للعقاد بالصحف لم تجمع .

٦ – مقالات وأبحاث متفرقة فى الصحف والمجلات بمناسبة وفاة العقاد وذكراه الأولى .


obeikandl.com